المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN: 2710-095 Electronic ISSN 2790-1254
عدد خاص بالمؤتمر العلمي الدولي الثامن لكلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية – جامعة بغداد بعنوان
التكامل المعرفي للدراسات التربوية والاجتماعية

شخصية ريتشارد قلب الاسد دراسة تحليلية نقدية في المصادر التاريخية

أ.د سولاف فيض الله حسن
جامعة بغداد- كلية التربية ابن رشد
amaq9768@gmail.com

د. عواض محمد القارحي

الملخص:
تُعدّ الشخصيات الملكية في العصور الوسطى من أكثر الشخصيات التاريخية تعرضًا لإعادة القراءة والتأويل عبر العصور، إذ لم تكن سيرهم تُكتب بوصفها تسجيلًا محايدًا للأحداث فحسب، بل بوصفها أيضًا أدوات رمزية تُسهم في تشكيل صورة السلطة والبطولة والشرعية السياسية. ويأتي الملك الإنجليزي ريتشارد الأول، المعروف بلقب «قلب الأسد»، في طليعة هذه الشخصيات التي لم يتوقف الجدل حولها منذ القرون الوسطى حتى الدراسات التاريخية المعاصرة، ليس فقط بسبب دوره العسكري في الحملة الصليبية الثالثة، بل أيضًا بسبب الإشكالات المتعلقة بحياته الشخصية، وعلى رأسها مسألة ميوله الجنسية وكيفية تصويرها في المصادر التاريخية. وتكتسب هذه القضية أهميتها من كونها لا تمسّ سيرة فرد واحد فحسب، بل تكشف في عمقها عن طبيعة الكتابة التاريخية الوسيطة ذاتها، وعن الفروق المنهجية بين لغة الإيحاء الرمزي التي اتسمت بها النصوص اللاتينية في القرن الثاني عشر، ولغة التصنيف الصريح التي تميل إليها الدراسات الحديثة. فالمؤرخون المعاصرون لريتشارد نادرًا ما صرّحوا بالقضايا الجنسية تصريحًا مباشرًا، بل عبّروا عنها بمفردات أخلاقية ولاهوتية مثل «قذارة الحياة» و«خطيئة سدوم»، وهي تعبيرات لا يمكن فهم دلالتها الدقيقة إلا في سياقها الثقافي والديني الخاص، الأمر الذي يجعل إعادة قراءة هذه النصوص ضرورة منهجية لفهم طبيعة الاتهامات والإشارات الواردة فيها.
ومن هنا يهدف هذا البحث إلى تحليل الإشارات المتعلقة بميول ريتشارد الجنسية في المصادر الوسيطة، ومقارنتها بالقراءات الحديثة التي تناولت هذه القضية، في محاولة للكشف عن مدى اعتماد تلك القراءات على الأدلة النصية الفعلية من جهة، ومدى تأثرها بإسقاطات فكرية وأيديولوجية معاصرة من جهة أخرى. كما يسعى البحث إلى بيان أن الجدل حول هذه المسألة لا يتعلق بحقيقة تاريخية بسيطة قابلة للإثبات أو النفي السريع، بل يرتبط بطبيعة اللغة التاريخية نفسها، وبالتحولات الثقافية التي أعادت تفسير شخصيات العصور الوسطى في ضوء قضايا الهوية والسلطة والتمثيل الثقافي.
وبذلك لا يقتصر هذا العمل على دراسة جانب من السيرة الشخصية لريتشارد قلب الأسد، بل يتجاوز ذلك إلى مساءلة منهج قراءة المصادر التاريخية الوسيطة، وإبراز الكيفية التي تتحول بها الإشارات النصية المحدودة إلى جدل تاريخي واسع يكشف عن تفاعل الماضي مع أسئلة الحاضر وتحولاته الفكرية.

المبحث الأول تحليل ميول ريتشارد الجنسية في المصادر القديمة.

نبدأ بالنصوص القديمة التي تتناول سلوك ريتشارد الشخصي، وعلى وجه الخصوص سجلات روجر أوف هاودن (Roger of Howden, fl. 1169–1202)، وبنديكت أوف بيتر بورو (Benedict of Peterborough, fl. 1174–1193)، وآدم أوف أينشام (Adam of Eynsham, c. 1155–c. 1233)، وكذلك الكتاب المجهول Itinerarium Peregrinorum أو Itinerarium Regis Ricardi (c. 1220s).
تتسم هذه المصادر جميعها بالموقف الإيجابي تجاه ريتشارد، فهي ليست ملاحظات، ولا افتراءات سياسية من خصومه (Howden, Chronica, 1187; Benedict, Chronicon, 1175–1193). ولم ينسب أي من المؤرخين إليه أفعالًا خاطئة أو خطايا صريحة، إلا أنهم، ضمن حدود الأعراف الأخلاقية والسردية المقبولة في عصرهم، أشاروا بانتظام إلى حبه للرجال الآخرين (Adam of Eynsham, Chronicon, c. 1200; Itinerarium Peregrinorum, c. 1220s).
تظهر أولى هذه الإشارات في كتابات روجر أوف هاودن خلال صيف عام 1187، في خضم صراعات ريتشارد مع والده هنري الثاني ملك إنجلترا (r. 1154–89)، وذلك بعد أن نشأت لديه علاقة مفاجئة وملحوظة مع فيليب الثاني ملك فرنسا (r.

(Howden, Chronica, 1187) (1180–1223). ورغم أن السجلات لا تتضمن أي لوم أخلاقي، فإن الإشارة إلى هذا الارتباط تعكس الطريقة الدقيقة التي كان يمكن بها للمؤرخين تناول الرغبات الجنسية المثلية دون انتهاك الأعراف الاجتماعية والأدبية لعصرهم، وتفيد رواية روجر الهوفدني أن ريتشارد كونت بواتييه، بعد عقد الصلح، آثر البقاء مع ملك فرنسا رغم معارضة أبيه هنري الثاني، وأن ملك فرنسا أظهر له منزلة خاصة، إذ كانا يجلسان إلى مائدة واحدة، ويأكلان من صحن واحد، ويبيتان في فراش واحد. وقد أثار هذا التقارب الشديد قلق ملك إنجلترا، لما لاحظه من قيام علاقة اتسمت بما وصفه المؤرخ بـ«شغاف الحب» [vehementem amorem]، فشرع يتخذ الاحتياطات ويرسل الرسل مرارًا لاستدعاء ابنه من فرنسا (Roger of Howden, 1853: 64; Roger of Howden, 1869: 318).

وقد درج بعض الباحثين المحدثين على التقليل من شأن هذا الخبر بدعوى أن الاشتراك في الفراش في العصور الوسطى لا يحمل بالضرورة دلالة جنسية. غير أن هذا التفسير يتغافل عن الدلالة البلاغية القوية لعبارة «vehementem amorem»، التي ترجمها هنري رايلي بتحفظ شديد إلى «ارتباط قوي» (Roger of Howden, 1853: 64). ذلك أن لفظ «vehementier» في الاستعمال اللاتيني الوسيط كان يدل على حركة نفسية مفرطة تتجاوز حد الاعتدال، وعلى انفعال غير عقلاني مخالف للطبيعة (Harris, 1783)، كما تشير آن ترينيداد إلى أن هذا الوصف كان يُستعمل لدى الوعّاظ الأخلاقيين للدلالة على الإفراط الجنسي وسوء السلوك (Trinidade, 1999: 190–95).

ويأتي هذا الوصف في سياق ثقافي أوسع شهد جدلًا لاهوتيًا وأخلاقيًا حول الروابط الرجولية المكثفة بين فرسان القرن الثاني عشر، إذ كانت تُشاد من جهة بوصفها مثالًا للمحبة الروحية، ويُخشى منها من جهة أخرى أن تنقلب إلى علاقة جنسية محرّمة (Kuefler, 2006; Karras, 2006). وقد تصاعد هذا القلق في القرن الرابع عشر بسبب اعتماد بعض الملوك الأوروبيين اعتمادًا بالغًا على خواصهم من الذكور، على نحو حمل إيحاءات مثلية واضحة (Zeikowitz, 2003; Bagerius and Ekholst, 2017).

وتتأكد هذه الدلالة حين نلاحظ أن بندكت من بيتربورو أعاد رواية الخبر نفسه في كتابه Gesta Regis Henrici Secundi et Gesta Regis Ricardi Benedicti abbatis، فاستعمل وصف «vehementem dilectionem»، وأضاف أن ملك فرنسا أحب ريتشارد «كأنما هو روحه» [et dilexit eum rex Franciae quasi animam suam]، مع تأكيد أن هذا الأمر أقلق هنري الثاني أشد القلق (Benedict of Peterborough, 1867: 7).

وعليه، فإن مشاركة الفراش لا تكفي وحدها لإثبات علاقة جسدية، غير أن اجتماعها مع هذا الوصف اللغوي القوي، ثم ما أعقب ذلك من عداوة شخصية حادة وخصومة مريرة بين ريتشارد وفيليب، استمرت حتى وفاة ريتشارد سنة 1199، يجعل الواقعة جديرة بإعادة النظر والتحليل الدقيق (see also Kocher, 2008).

لا يهدف هذا الطرح إلى الجزم بطبيعة العلاقة الجسدية بين الطرفين، وإنما إلى إبراز أن كتّاب العصور الوسطى أنفسهم صاغوا هذه العلاقة بصيغة إيحائية تحمل شبهة الانحراف الأخلاقي، حتى وإن لم يصرحوا به صراحة. وتكشف هذه الصياغة عن مأزق المنهج الحديث الذي يشترط وجود «دليل مادي مباشر» للإثبات، وهو معيار لا يُطلب عادة لإثبات العلاقات المغايرة، مما يؤدي إلى إقصاء تجارب غير نمطية من التاريخ بدعوى غياب البرهان القاطع. ويبدو أن المؤرخين في العصور الوسطى كانوا يملكون أسبابًا جعلتهم يرجحون الطابع الجنسي لهذه العلاقة، غير أنهم التزموا الصمت البلاغي المتعارف عليه في موضوع اللواط، الذي نادرًا ما كان يُذكر صراحة في السرد التاريخي (Scanlon, 1995).

ثم يورد روجر الهوفدني خبر توبة ريتشارد في مسّينا بصقلية أواخر سنة 1190 أو أوائل 1191، فيصفه بأنه اعترف علنًا بقذارة حياته [foeditatis vitae suae]، وسقط عاريًا عند أقدام الأساقفة، معللًا ذلك بزوال «أشواك الشهوة» عن رأسه [vepres enim libidinum excesserant caput illius] (Roger of Howden, 1853: 176).

وتشير القرائن إلى أن هذه التوبة كانت موجهة إلى ذنوب ذات طابع جنسي شاذ في نظر الكنيسة، لا إلى علاقات غير شرعية مع النساء. فتوبيخ رجال الدين لريتشارد في سنتي 1195 و1198 كان صريحًا في ربطه بمخالفات جنسية، كما أن التوبة العلنية عن علاقات مع النساء، ولا سيما في حق ملك، لم تكن معروفة في تقاليد الملوك المعاصرين له أو أسلافه. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن وليم المالزبوري، في حديثه عن هنري الأول ملك إنجلترا، رغم كثرة أولاده غير

الشرعيين، يصوره في صورة من يزاول العلاقات النسائية لا بدافع الشهوة بل بدافع الإنجاب فقط (William of Malmesbury, 1998: 745).

يفهم من هذا التفاوت في التناول أن السلوك الجنسي المغاير لم يكن يعد موجبًا للتوبة العلنية، في حين أن السلوك غير المعياري دينيًا كان يستوجب اعترافًا عامًا وتطهيرًا رمزيًا. ومن ثمّ يمكن تفسير توبة ريتشارد العلنية بوصفها استجابة لضغط أخلاقي كنسي متعلق بسلوك غير مألوف في حق الملوك، وهو ما يدعم القراءة التي ترى في هذه النصوص إشارات ضمنية إلى علاقات مثلية، حتى وإن لم ترد بصيغة تقريرية صريحة.

ويؤكد ما تقدّم أن المؤرخين في العصور الوسطى كانوا يتوسّعون في تقويم الأفعال بحسب موقع صاحبها من السلطة. فقد أمكنهم أن يجعلوا كثرة أبناء هنري الأول غير الشرعيين منقبة ملكية، بل أثنى كتاب Gesta على «كراهية هنري للفحش»، في مقابلة صريحة بإدانته لبلاط أخيه وليم الثاني ملك إنجلترا (1087–1100) وأصحابه، إذ وصفهم بأنهم:

«ضعافًا، مخنثين، غير راغبين في البقاء على ما خُلِقوا عليه؛ يفسدون عفة غيرهم، ويبددون عفتهم هم أنفسهم [Enerues, emolliti, quod nati fuerant inuiti manebant, expugnatores alienae pudicitiae, prodigi suae ...]

وكما قال حكيم قديم: إن بلاط ملك إنجلترا [وليم الثاني] ليس موطن هيبة، بل بيت دعارة للمنحرفين» (William of Malmesbury, 1998: 560–61).

فلم يكن إذن نشاط هنري الأول في العلاقات النسائية خارج الزواج مانعًا من تصويره بوصفه البديل الصالح في مقابل انحلال أخيه المخنث والموسوم بالانحراف الجنسي.

ويبدو هذا على أن الزنا مع النساء لم يكن ، عيبًا يستوجب الفضيحة إذا وقع من ملك قوي، بل كان يُؤوَّل على أنه دليل فحولة وسيادة، في حين كانت الممارسات المخالِفة للنمط المألوف تُحمل على معنى الانحلال والخروج عن الطبيعة، وتُجعل معيارًا للفساد السياسي والأخلاقي معًا.

ومن هنا يُستبعد كثيرًا أن يكون المؤرخون، مع ما أبدوه من إعجاب بريتشارد في مواضع أخرى، قد شغلوا أنفسهم بخليلات من النساء أو نزوات معتادة من ملك، فضلًا عن أن يسموا ذلك «قذارة حياته». ويقوّي هذا الظن أن هنري الثاني، والد ريتشارد، مع شهرته بكثرة النساء، لم يخضع لكفارة علنية إلا مرة واحدة، ولم تكن بسبب ذنب جنسي، بل حين جُلد في كانتربري يوم 12 يوليو 1174 لما نُسب إليه من دور في مقتل توماس بيكيت سنة 1170، وصادف ذلك في اليوم نفسه أسرُ وليم «الأسد» ملك الاسكتلنديين (William of Newburgh, 1884).

وقد أشار وليم النيوبرغي في نعيه المطوّل لهنري الثاني إشارة عابرة إلى «إفراطه في المعاشرة الزوجية» [conjugalem modum excessit]، غير أنه جعل عنايته منصرفة إلى اضطراب علاقته بزوجته إليانور آكيتاين وأبنائهما، وعدّد فضائله ورضي في الجملة عن ملكه، وإن رأى أن توبته عن دم بيكيت لم تكن تامة.

ويظهر لي من هذا أن الخيانة الزوجية، لا تعد خطيئة كبرى، ولا تُجعل محور النقد الأخلاقي، بل تمر مرًّا عارضًا، بخلاف ما وقع لريتشارد، إذ نراه يُوبَّخ مرارًا وبصيغة مطوّلة عن فعل واحد بعينه.

وهذا الفارق في المعالجة لا يستقيم إلا إذا كان ذنب ريتشارد مختلفًا نوعيًا ، ولذلك سمّاه هوفدن في موضع تالٍ «خطيئة سدوم». قال:

«وفي السنة نفسها [1195] قدم ناسك إلى الملك ريتشارد، فوعظه بكلام الخلاص الأبدي، وقال له: "اذكر خراب سدوم، واجتنب ما حُرّم، فإن لم تفعل أدركتك نقمة تليق بالله". غير أن الملك، المشغول بأمور الدنيا دون أمور الله، لم يستطع أن يصرف نفسه عما هو محرّم ...

ولهذا، ففي يوم الرب من أسبوع الفصح، زاره الرب بعصا من حديد، لا ليهلكه بل ليؤدبه. فابتلاه بمرض شديد، حتى دعا رجال الدين، ولم يستح أن يعترف بإثم حياته، وبعد أن نال الحلّ، رجع إلى زوجته التي لم يكن عرفها منذ زمن طويل، وطرح كل علاقة محرّمة، فثبت معها، وصارا جسدًا واحدًا، ومنحه الرب عافية الجسد والنفس» (Roger of Howden, 1853: 356–57).

ومع أن الترجمة الإنجليزية واضحة، فإن الأصل اللاتيني أدلّ منها، لأن «خطيئة سدوم» [subversionis Sodomae] كانت في القرن الثاني عشر قد استقر معناها شيئًا فشيئًا على المعاشرة بين الذكور، بعد أن كانت تُطلق على كل فعل جنسي منحرف. وأما حملها على مجرد أفعال غير إنجذاب للنساء، فبعيد الاحتمال، لأنه يفترض اطّلاع المؤرخين على دقائق ما يقع في مضجع الملك، وهو ما لا يستقيم عقلًا (see Boyd, 1994; Russell, 1998; Cottier, 2007; Olsen, 2011).

ويبدو أن هذا التحول الدلالي وصف ريتشارد بخطيئة سدوم لم يكن لفظًا عارضًا أو مجازيًا، بل كان يستدعي معنىً محددًا في الذهن اللاهوتي المعاصر، وهو الممارسة الجنسية المثلية بين الرجال، لا مجرد الفجور العام.

ويشهد على ذلك قول اللاهوتي الباريسي بطرس المُرنِّم (ت. 1197)، إذ أفرد في كتابه Verbum Abbreviatum فصلًا في ذم اللواط، وجعلها في رتبة واحدة مع القتل.[1] (Peter the Chanter, 1855; Mills, 2015) واستشهد بقوله بما جاء في الكتاب المقدس: «تركوا الاستعمال الطبيعي للنساء، واشتهوا بعضهم بعضًا» (رومية 1: 26–27)، وصرّح بأن فجور سدوم وعمورة كان من هذا الباب بعينه: «ذكورًا مع ذكور، وإناثًا مع إناث». (See also Van der Lugt, 2010.)

يتبيّن من مجموع هذه الأخبار أن توبة ريتشارد العلنية، وما رافقها من وعظ وتهديد بخطيئة سدوم، لا يمكن تفسيرها في إطار الذنوب الجنسية المألوفة عند الملوك، بل ينبغي فهمها في ضوء التصور اللاهوتي الذي ربط بين الممارسة المثلية وبين الهلاك الإلهي. ومن ثم فإن سكوت المؤرخين عن تسمية الفعل صراحة لا يدل على براءته، بل على خضوعهم لعرف بلاغي يتجنب التصريح بمثل هذه الأفعال، ويكتفي بالإشارة الرمزية إليها بألفاظ مثل «قذارة الحياة» و«خطيئة سدوم»

يتضح من المصادر أن مفهوم «السدومية» في القانون الكنسي كان يشمل النساء أيضًا، غير أن ارتكاب «خطيئة سدوم» عند الرجال كان يُفهم أساسًا على أنه ممارسة علاقة جنسية مثلية. ويظهر ذلك في وصف روجر من هاودن لريتشارد بأنه «رافضٌ للعلاقة الجنسية المحرمة» [abjecto concubitu illicito]، وهي عبارة صيغت في اللاتينية بصيغة المذكر، مع أنه كان يمكن صياغتها بصيغة المؤنث بسهولة [abjecta concubita illicita]. وهذا الاختيار اللغوي يدل على أن المقصود علاقة محرمة بين رجال.

وعندما قبل ريتشارد التوبة وأعاد زوجته، لم يستخدم هاودن كلمة «زوجة» المعتادة في اللاتينية (uxor)، بل قال إنه أعاد «امرأته» [mulierem suam] التي لم يعرفها منذ زمن طويل. وكلمة mulier تعني غالبًا «امرأة» لا «زوجة» فقط، مما يوحي بأن المعنى ليس مجرد الرجوع إلى زوجته بيرنغاريا النفرية (نحو 70/1165–1230)، بل الرجوع إلى النساء عمومًا بعد ترك علاقاته غير المشروعة.

ويُلاحظ كذلك أنه رغم معرفتنا بأسماء عشيقات بعض الملوك، مثل هنري الثاني، فإن المصادر لا تذكر لريتشارد أي عشيقة معروفة، كما أن أم ابنه غير الشرعي الوحيد، فيليب من كونياك، مجهولة الاسم. وهذا يشير إلى أنه لم تكن له علاقات نسائية معروفة أو مستمرة. ومن المعتاد أن تُذكر أسماء النساء إذا وقعن في فضائح أخلاقية تخص الملوك، ويُلقى اللوم عليهن بدلًا من الملوك، لكن هذا لم يحدث في حالة ريتشارد.

ورغم توبيخه سنة 1195، فإن سلوكه لم يتغير تغيرًا دائمًا، إذ وُبِّخ مرة أخرى سنة 1198 على يد فولك دو نويي وهيو أسقف لنكولن. إلا أن ردّه هذه المرة كان مختلفًا، فقد ظهر فيه نوع من التحدي. فعندما اتهمه فولك بإنجاب ثلاث بنات رمزيّات هن: الكبرياء والطمع والشهوة، ردّ ريتشارد ساخرًا بأن يتزوج فرسان الهيكل الكبرياء، ويتزوج رهبان السيسترسيين الطمع، وتتزوج الكنيسة الشهوة (Roger of Howden, 1869: 76–77; Gerald of Cambrai, 1868: 44).

كما أن هيو أسقف لنكولن التقى ريتشارد في قلعته بشاتو غايار سنة 1198، ووبخه في عدة أمور منها الخيانة الزوجية التي أصبحت حديث الناس [iam publicus rumor est quia nec proprie coniugi maritalis thori fidem conseruas.] (Adam of Eynsham, 1985: 105). فردّ ريتشارد بأن ضميره مرتاح في أغلب الأمور، عدا كرهه لأعدائه، وأنه استمع إلى النصيحة، وأنكر بعض الاتهامات، وطلب الدعاء في مواضع أخرى (Adam of Eynsham, 1985: 104–05). ولم تؤدِّ هذه التوبيخات إلى توبة علنية جديدة أو إلى عودة فعلية إلى زوجته بيرنغاريا.

ومن خلال ذلك يظهر إن موقف ريتشارد من ميوله كان معقدًا؛ فقد كان يعلم أنها مخالفة لتعاليم الكنيسة، وكان يتوب عنها أحيانًا لأسباب سياسية أو صحية، لكنه كان يعود إليها غالبًا بعد ذلك. وهل يمكن اعتبار سكوت خصومه الفرنسيين عن اتهامه بهذا السلوك قرينةً على انتفائه؟ ، غير أن هذا الرأي ضعيف لأسباب عدة.

أولًا، لأن هذه التهمة كانت تُعد من «الخطايا الصامتة» [peccatum mutum] التي لا يُصرَّح بها عادة. وثانيًا، لأن لغة المصادر كانت تعتمد التلميح لا التصريح في المسائل الجنسية. وكما يقول مارك د. جوردن: «اللغة الجنسية غنية بالاستعارات والتلميحات، في اللاتينية الوسيطة كما في الإنجليزية الحديثة، فهي تشير إلى الأمور الجنسية دون أن تصرح بها» (Jordan, 1997: 7).

وثالثًا، لأن أحد أعداء ريتشارد قد اتهمه بذلك فعلًا أثناء الحملة الصليبية الثالثة. فقد دخل في صراع مع هيو الثالث دوق بورغونيا، قائد القوات الفرنسية بعد انسحاب فيليب. وبعد فشل التقدم نحو القدس سنة 1192، انفصل المعسكر الفرنسي عن الإنجليزي، وقام هيو بتأليف أغنية تسخر من ريتشارد وتتهمه بسلوك جنسي شاذ. ويذكر كتاب Itinerarium Peregrinorum أن كلمات هذه الأغنية كانت فاحشة ولا تليق بالذكر، وأنها صوّرت رجالًا «يتجاوزون اغتصاب النساء إلى اغتصاب الرجال» [non tantum viris, sed et viros ultra rapientibus mulieribus] (Chronicle of the Third Crusade, 1997: 346; Boswell, 1980: 231–32).

وقد انتشرت هذه الأغنية في صفوف الجيش كله، مما أغضب ريتشارد، فقام بالرد عليها بأغنية ساخرة مضادة. ويُفهم من طريقة عرض الرواية أن هذه الأغنية كانت تشهيرًا مباشرًا بعاداته الجنسية، خاصة بعد توبته العلنية في مسينا قبل الحملة. كما يدل هذا على أن الأغاني كانت وسيلة شائعة للتشهير السياسي داخل الجيوش الصليبية (Sweetenham, 2018; Barbieri, 2018).

كما حاول مؤلف Itinerarium Peregrinorum دفع التهمة عن ريتشارد بإلقائها على الفرنسيين، مبيّنًا أن السدومية المثلية أسوأ من الاغتصاب بين الرجال والنساء. ويلاحظ أن ردّ ريتشارد اقتصر على السخرية الغنائية من خصومه، وهو ما يتفق مع موقفه المتحدي في حوادث التوبيخ السابقة (Lee, 2018).

المبحث الثاني ميول ريتشارد الجنسية في التأريخ الحديث

كيف أعاد المؤرخون المحدثون قراءة المصادر القديمة المتعلقة بسلوك ريتشارد الأول؟ يبدو أن إعادة تقييم إرث هذا الملك قد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بقلقٍ حديث متزايد من مشاركته في الحملات الصليبية، وبالرغبة في تفكيك صورته التي صاغها الأدب الفيكتوري بوصفه نموذج الفارس المهذّب المثالي، كما في رواية إيفانهو لوالتر سكوت (Sroka, 1979; Ragussis, 1993). فحتى القراءة السريعة للمصادر الأولية تكشف عن صورة أكثر تعقيدًا لأفعال ريتشارد وشخصيته، وهي صورة لم تعد تنسجم مع البناء الرومانسي الذي أنتجته الثقافة الأوروبية الحديثة. وقد كان مفكرو عصر التنوير في القرن الثامن عشر شديدي القسوة في أحكامهم على الحروب الصليبية، إذ وصفها ديدرو بأنها ثمرة «البلاهة والحماسة الكاذبة»، ورآها هيوم «أبرز وأدل شاهد على حماقة البشر في أي عصر أو أمة»، بينما عدّها تايرمن مظهرًا من مظاهر «التعصب الوحشي» (Tyerman, 1998: 112). وبعد أن شهدت هذه الحروب إحياءً رومانسيًا في القرن التاسع عشر، حيث استُخدمت صورها المثالية لدعم المشاريع الاستعمارية والإمبريالية الأوروبية، عادت النظرة السلبية إليها لتفرض نفسها بقوة في القرن العشرين. فالعالم الغربي الحديث، الذي أراد أن يرى نفسه علمانيًا ومتقدمًا، فضّل تقديم ذاته بوصفه نقيضًا للحضارات القرون الوسطى التي ارتبطت بالعنف الديني، فكان لزامًا عليه أن يُدين الحروب الصليبية بدل تمجيدها (Asad, 2007; Cavanaugh, 2009)، ومن ثم أن يُعاد تفكيك صورة ريتشارد الذي كان يُحتفى به سابقًا بوصفه بطلًا مجيدًا.

وفي هذا السياق، قدّم جيمس بروندج في سيرته لريتشارد سنة 1974 قراءة صريحة لمسألة ميوله الجنسية، إذ خلص إلى أن «ريتشارد كان ميالًا بطبعه إلى المثلية الجنسية... بل إن هذه النتيجة تتعزز بمعرفته الوثيقة بأمه ونفوره من أبيه الذي رفضه» (Brundage, 1974: 258). غير أن هذا الحكم، على يبدو أن تفسير المؤرخ لميول ريتشارد الجنسية متأثر بشكل كبير بالأفكار النفسية الحديثة في سبعينيات القرن العشرين، مثل تحليلات فرويد ، أكثر مما يعتمد على دراسة دقيقة

للمصادر التاريخية نفسها. ومن ثم، يظهر هذا كمثال على كيف أن المؤرخ قد أسقط تصورات عصره على شخصية تاريخية قديمة.

وقد انتقلت هذه النظرة أيضًا إلى السينما، كما في فيلم The Lion in Winter (1968)، حيث صُوِّر ريتشارد—وقد أدّاه أنطوني هوبكنز—شخصية قاسية، مولعة بالحرب، ومهووسة بأمه إليانور (Katharine Hepburn)، كما تورط في علاقة مضطربة مع فيليب ملك فرنسا (Timothy Dalton)، يصفها الأخير بأنها بدأت عندما أفاق من حادث صيد فوجد ريتشارد «يلمسني». في هذا التصوير، يبدو ريتشارد وكأنه يعاني من اضطراب جنسي شامل: تعلق محرم بأمه، وسلوك قسري تجاه خصم سياسي أصغر سنًا. وتصبح هذه الانحرافات المزعومة سببًا لتفسير سلوكه الدموي وعدوانيته السياسية. ومع أن الفيلم عمل درامي تخييلي لا يلتزم بدقة الوقائع التاريخية، فإنه يستبعد تمامًا البعد الرومانسي أو التوافقي للعلاقة المزعومة بين ريتشارد وفيليب، ليجعلها مجرد «خطيئة شخصية» واختيار فردي منحرف لا يمكن أن يكون محل رغبة متبادلة أو قبول مشترك (انظر أيضًا Palmer, 2009).

وقد درست لورين ك. ستوك تمثيلات سينمائية أخرى لريتشارد تتناول أيضًا إشكالية ميوله الجنسية غير المحددة. ففي فيلم The Crusades (1935) للمخرج سيسيل ب. دي ميل، يُظهر ريتشارد (Henry Wilcoxon) في النصف الأول من الفيلم ميالًا إلى سلوكيات ورغبات «شاذة»، ثم يتحول في نهايته إلى عواطف جنسية مغايرة أكثر قبولًا اجتماعيًا. وكما تقول ستوك: «إن البناء التحويلي للشخصية من ريتشارد مثلي إلى ريتشارد مغاير الجنس يتنبأ على نحو لافت بالحيرة التي وقع فيها المؤرخون لاحقًا حول جنسية الملك» (Stock, 2009a: 65). غير أن هذا التحول لا يبدو قاطعًا أو مكتملًا؛ إذ أضاف دي ميل مثلثًا عاطفيًا متخيلًا بين ريتشارد وصلاح الدين ، ما يوحي بأن السلطان المسلم القوي والفارس المثالي يمكن أن ينافس الملك الإنجليزي على قلب المرأة، ويعكس توترًا ثقافيًا حديثًا بين البطولة، والذكورة، والهوية الجنسية، أكثر مما يعكس واقع العلاقات السياسية في القرن الثاني عشر.ويبدو من مجموع هذه القراءات الحديثة أن «غرابة» ريتشارد لم تعد تُقرأ في ضوء منطق العصور الوسطى نفسه، بل في إطار حساسيات أخلاقية ونفسية حديثة، تجعل من ميوله المحتملة مفتاحًا لتفسير شخصيته وسلوكه السياسي والعسكري. وبذلك لا يعود الجدل حول حياته الخاصة نقاشًا تاريخيًا محضًا، بل يتحول إلى مرآة تعكس مخاوف الحداثة الغربية من العنف الديني، والبطولة الإمبريالية، والهوية الجنسية في آن واحد.

ويمثل تصوير السلطان المسلم صلاح الدين في الأفلام شخصية ذات رجولة صلبة وفروسية لا يمكن لريتشارد أن يصل إليها تمامًا، رغم حب ريتشارد لبرنغارية، وبقي زواج الملكين صوريا.

(انظر أيضًا Stock, 2009b).

يقوم عمل جون جيلينغهام بوظيفة تصحيحية لهذه الالتباسات إلى حد ما، إذ يأخذ تحليله لريتشارد بعين الاعتبار كلًا من نقائصه ومميزاته، ليصوّر ملكًا بارعًا وديناميكيًا، لم يكن شقيقه ووريثه جون قادرًا على تكرار نجاحه العسكري. غير أن جيلينغهام، في سعيه لإعادة تأهيل ريتشارد، يعمد إلى إزالة أي تلميح إلى ميوله المثلية، ويرفض تمامًا أن يكون التوبيخ الصادر لريتشارد في 1195 إشارة إلى المثلية، مؤكدًا أن «في الأيام التي كان الناس يقرأون فيها الكتاب المقدس كاملاً ويقدرون قيمة العظة الجيدة، لم يفهم أحد كلمات الناسك على أنها تشير إلى أن ريتشارد كان مثليًا» (Gillingham, 1994: 134؛ انظر أيضًا Gillingham, 1980, 1992, 1999). ورغم أن قلة قليلة فقط في العصور الوسطى كانت تستطيع قراءة الكتاب المقدس كاملًا، فإن بيتر ذا تشانتر فسّر بالفعل «السفاح» على أنه المثلية بين الذكور. كما ينفي جيلينغهام أي علاقة مثلية محتملة بين ريتشارد وفيليب على أساس مماثل، قائلاً: «بالنسبة للقارئ الحديث قد يبدو معنى هذه الكلمات واضحًا جدًا، لكن من الخطأ افتراض أن الإيماءات مثل التقبيل أو النوم في نفس السرير تحمل نفس المعنى في جميع العصور... ومن كان يقصده بيتر ذا تشانتر. (Gillingham, 1994: 135–36).

ويرى ويليام بيرغوينكل (2004) أن هذا المنظور متحيز ويقلل من قيمة الأدلة النصية المتوافرة، إذ من غير المعقول تجاهل أو التقليل من الأدلة التي تشير إلى سلوك ريتشارد المثلي، خصوصًا وأنها مركزة حوله فقط، ومأخوذة من سجلات عامة صديقة له. ويشير بيرغوينكل إلى تلميحات إضافية في كتابات ويليام أوف نيوبرغ وريتشارد أوف ديفيز، ويطرح تساؤلاً جوهريًا: «لماذا يُذكّرنا دائمًا بأن فرض أي فكرة عن المثلية على العصور الوسطى هو تأريخ خاطئ، بينما تنتشر تصوراتنا الزمنية عن المغايرة الجنسية بشكل كثيف وموحد عبر قرون من التعليقات النقدية؟» (Burgwinkle, 2004: 74). كما

يؤكد أن ريتشارد—رغم كونه محاربًا موهوبًا وذو جاذبية رجولية—لا يمكن اختزاله في صورة النمطية الضعيفة أو «المثلي الجنس» وأن التفسير الشائع لميوله الجنسية غالبًا ما يميل إلى تأكيده إما كرجل مغاير بالكامل أو كرجل مثلي بالكامل، دون إدراك السيولة والتعقيد الذي قد يميز التوجه الجنسي والتجربة الإنسانية (Burgwinkle, 2004: 85).

وفي الاتجاه المعاكس، ذهب جيمس ريستون الابن في Warriors of God (2007) إلى حد ربط ريتشارد بمثلية منحرفة لتأكيد نقده للملك، مدعيًا أن زواجه من برنغارية كان «زائفًا» ولم يتم فعليًا، وهو ما تؤكده بعض التحليلات السينمائية مثل ستوك، رغم أن ذلك غير محتمل، خاصةً وأن هاودن يشير صراحةً إلى إتمام الزواج. وفي هذا الإطار، يبدو أن كل من جيلينغهام وريستون يعكسان مواقف شخصية حديثة تجاه المثلية، الأولى بمحاولة تبرئة ريتشارد، والثانية بربطه بشذوذه الجنسي لإثبات عدم استحقاقه، وكل منهما يعكس أجندة خاصة أكثر من الاعتماد على دليل تاريخي متين.

ويجسد هذا النقاش القلق الحديث من مشاركة ريتشارد في الحروب الصليبية، ويمس مسائل أوسع تتعلق بالعنف الديني مقابل العلماني، والعلاقات المسيحية-الإسلامية، وانتقادات التدخلات العسكرية الغربية في الشرق الأوسط. ومن السهل رؤية العلاقة بين الخوف من «الآخر» الاجتماعي والديني والخوف من «الآخر» الجنسي، والدور المؤقت والمتناقض الذي اضطلع به ريتشارد كقائد صليبي ومثلي في الوقت ذاته (انظر أيضًا Biddick, 2007). يشير بيرغوينكل إلى أن توظيف مصطلح «السفاح» (sodomy) في الأدبيات اللاتينية لم يكن استعمالًا قانونيًا أو أخلاقيًا محددًا بالمعنى الضيق الذي استقر لاحقًا في الخطاب اللاهوتي أو القانوني، بل كان في كثير من الأحيان أداة خطابية أيديولوجية تُستعمل لوسم «الآخر» وشيطنته ثقافيًا وسياسيًا. فقد كان المصطلح يُطلق بمرونة واسعة على جماعات متعددة اعتُبرت خارجة عن المنظومة المسيحية الغربية، سواء لأسباب دينية أو عرقية أو حضارية، حتى غدا أحيانًا علامة لغوية على «الغرابة» والاختلاف أكثر منه توصيفًا لسلوك بعينه. ومن هنا نرى أنه طُبِّق في بعض النصوص على غير المسيحيين، وعلى الشعوب غير الأوروبية، بل وعلى الأجانب الذين جرى تصويرهم بوصفهم غير مندمجين في النظام الاجتماعي المسيحي، أو غير قادرين ـ في المخيال الأدبي واللاهوتي ـ على تمثيل نموذج الأسرة المسيحية المثالية، وهو ما يكشف البعد الرمزي والسياسي الكامن في استخدام المصطلح أكثر من كونه توصيفًا أخلاقيًا دقيقًا (Burgwinkle, 2004: 73؛ انظر أيضًا Hutcheson, 2001; Hernández Peña, 2016).

وفي السياق نفسه، كان مصطلح «ساراسين» (Saracen) يؤدي وظيفة تصنيفية مشابهة داخل الروايات التاريخية والأدبية اللاتينية، إذ لم يكن في الأصل تسمية إثنية أو دينية دقيقة، بل وُظِّف بوصفه تعبيرًا عامًا يُطلق على طيف واسع من «أعداء» العالم المسيحي اللاتيني خارج حدوده السياسية والثقافية. فقد استُخدم المصطلح في بعض النصوص للإشارة إلى شعوب متعددة من الشرق والجنوب، قبل أن يضيق معناه تدريجيًا ـ نتيجة تطور الصراع الصليبي وتبلور صورة العدو في الوعي الأوروبي ـ ليصبح في الاستخدام اللاحق مرتبطًا أساسًا، وإن لم يكن على نحو حصري، بالمسلمين. ويكشف هذا التحول الدلالي عن آلية تشكّل الصور الذهنية الجماعية في العصور الوسطى، حيث تتحول المصطلحات من تسميات فضفاضة إلى علامات هوياتية أكثر تحديدًا بفعل السياق السياسي والعسكري وتراكم السرديات الصراعية (Murray and Roscoe, 1997; Tolan, 2002; Berco, 2007).

خاتمة البحث

وفي ضوء ما تقدّم من تحليل النصوص اللاتينية الوسيطة ومقارنتها بقراءات المؤرخين المحدثين، يتبيّن أن قضية ميول ريتشارد قلب الأسد الجنسية ليست مسألة تاريخية بسيطة يمكن حسمها بعبارة تقريرية قاطعة، بل هي نموذج إشكالي يكشف عن طبيعة الكتابة التاريخية نفسها، وعن التوتر العميق بين صمت المصادر، ولغة الإيحاء، وإسقاطات القراءات الحديثة. فالمؤرخ الوسيط لم يكن يكتب بلغة التصنيف الجنسي الصريح التي يعرفها العصر الحديث، بل بلغة أخلاقية لاهوتية تعتمد الرمز والتلميح، في حين أن المؤرخ الحديث كثيرًا ما حاول أن يفرض على هذه اللغة منظومات مفاهيمية لاحقة، فإما أن ينفي كل احتمال بدعوى غياب التصريح، أو يثبت الأمر على أساس قراءات نفسية معاصرة لا تنتمي إلى السياق الوسيط ذاته.

ومن هنا فإن القيمة العلمية الحقيقية لهذا البحث لا تكمن في إثبات ميول ريتشارد أو نفيها بقدر ما تكمن في إعادة بناء منهج قراءة المصادر الوسيطة نفسها، وإظهار أن الصمت البلاغي ليس براءة، وأن الإشارة الرمزية ليست دليلًا قاطعًا، وأن التاريخ الشخصي للملوك لا يُقرأ إلا داخل البنية الأخلاقية والسياسية واللاهوتية التي أنتجت النصوص. إن شخصية ريتشارد، بما تحمله من تناقضات بين البطولة العسكرية، والسلطة السياسية، والجدل الأخلاقي حول حياته الخاصة، تمثل مثالًا واضحًا على أن التاريخ لا يصنعه الفعل وحده، بل تصنعه أيضًا الطريقة التي يروى بها هذا الفعل، واللغة التي تُصاغ بها دلالاته، والتحولات الثقافية التي تعيد تفسيره عبر العصور.

ولعل الجدل المستمر حول حياته الخاصة يكشف في حقيقته عن قلقٍ حديثٍ أكثر مما يكشف عن يقينٍ تاريخي؛ إذ إن سؤال «هل كان ريتشارد مثليًا؟» لا يعكس فقط محاولة فهم الماضي، بل يعكس أيضًا رغبة الحاضر في إعادة تعريف البطولة، والذكورة، والعنف الديني، والعلاقة بين السلطة والجسد في التاريخ الأوروبي. ومن ثم فإن إعادة قراءة سيرة ريتشارد ليست إعادة تقييم لشخص واحد فحسب، بل هي إعادة مساءلة لطبيعة التأريخ ذاته: كيف تُبنى الصور التاريخية؟ وكيف تُخفى بعض الدلالات في النصوص ثم تُستعاد بعد قرون؟ وكيف تتحول حياة الأفراد إلى مرآة تعكس تحولات القيم والمعايير الحضارية؟

وبذلك يمكن القول إن ريتشارد قلب الأسد، سواء حُسم الجدل حول ميوله أم بقي مفتوحًا، يظل شخصية تاريخية كاشفة لحدود المعرفة التاريخية نفسها، وللطريقة التي تتشكل بها الحقيقة بين النص، والتأويل، والذاكرة الحضارية. فالتاريخ لا يقدم لنا دائمًا أجوبة نهائية، لكنه يكشف لنا باستمرار عن الأسئلة الكبرى التي يطرحها كل عصر على الماضي، وعن المعاني التي يعيد كل جيل صياغتها في ضوء رؤيته لذاته وللعالم.

نتائج البحث

يمكن تلخيص أهم النتائج التي انتهى إليها هذا البحث في النقاط الآتية:

1. طبيعة الإشارات في نصوص العصور الوسطى

كشفت المصادر اللاتينية أن الحديث عن السلوك الجنسي للملوك لم يكن يُصاغ بصيغة تقريرية صريحة، بل بلغة إيحائية رمزية تعتمد مفاهيم أخلاقية ولاهوتية مثل «خطيئة سدوم» و«قذارة الحياة»، وهو ما يجعل تفسير النصوص يتطلب فهم السياق الثقافي للعصور الوسطى لا القراءة الحرفية الحديثة.

2. عدم وجود دليل حاسم مباشر

لم تقدّم المصادر المعاصرة لريتشارد دليلًا ماديًا قاطعًا يثبت علاقة مثلية محددة، لكنها في الوقت نفسه قدّمت مجموعة قرائن لغوية وسردية متكررة تجعل المسألة مفتوحة للتأويل العلمي، لا قابلة للنفي المطلق ولا للإثبات القطعي.

3. الفارق بين الذنوب الجنسية في الخطاب العصور الوسطى

أظهرت الدراسة أن العلاقات غير الشرعية مع النساء لم تكن تُعدّ خطيئة تستوجب التوبة العلنية للملوك، بينما كانت المخالفات الجنسية غير النمطية تُعالج بخطاب كنسي شديد، وهو ما يفسّر خصوصية التوبيخات التي وُجّهت إلى ريتشارد مقارنة بغيره من الملوك.

4. تأثير القراءات الحديثة والأيديولوجية

بيّن البحث أن كثيرًا من التفسيرات الحديثة لميول ريتشارد تأثرت بمواقف أيديولوجية معاصرة؛ فبعض المؤرخين سعى إلى تبرئته تمامًا حفاظًا على صورته البطولية، بينما ذهب آخرون إلى تضخيم الاتهام لتأكيد نقدهم للحروب الصليبية، مما أدى إلى قراءات متناقضة للمادة التاريخية نفسها.

5. إشكالية إسقاط المفاهيم الحديثة على العصور الوسطى

أثبت التحليل أن استخدام مفاهيم الهوية الجنسية الحديثة بوصفها تصنيفات ثابتة قد يؤدي إلى قراءة غير دقيقة للمصادر العصور الوسطى، لأن المجتمعات في تلك الحقبة لم تكن تنظّم السلوك الجنسي وفق مفاهيم الهوية المعاصرة، بل وفق منظومة أخلاقية ولاهوتية مختلفة جذريًا.

6. أهمية المنهج النقدي في قراءة التاريخ الشخصي للملوك

انتهت الدراسة إلى أن فهم الحياة الخاصة للشخصيات التاريخية لا يتحقق عبر البحث عن «حقيقة شخصية» مجردة، بل عبر تحليل اللغة التي صاغت الروايات التاريخية، والظروف السياسية والدينية التي أنتجت تلك النصوص، والتحولات الثقافية التي أعادت تفسيرها عبر الزمن.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر الأولية

- Adam of Eynsham. Magna Vita Sancti Hugonis. London: Rolls Series, 1985.
- Benedict of Peterborough. Gesta Regis Henrici Secundi et Gesta Regis Ricardi. Edited by William Stubbs. London: Rolls Series, 1867.
- Gerald of Wales. Giraldus Cambrensis Opera. London: Rolls Series, 1868.
- Peter the Chanter. Verbum Abbreviatum. Paris, 1855.
- Roger of Howden. Chronica Magistri Rogeri de Hovedene. Edited by William Stubbs. London: Rolls Series, 1853–1869.
- The Chronicle of the Third Crusade: A Translation of the Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi. Translated by Helen Nicholson. Aldershot: Ashgate, 1997.
- William of Malmesbury. Gesta Regum Anglorum. Oxford: Clarendon Press, 1998.
- William of Newburgh. Historia Rerum Anglicarum. London, 1884.

ثانيًا: الدراسات الحديثة:

- Asad, Talal. On Suicide Bombing. New York: Columbia University Press, 2007.
- Bagerius, Henric, and Christine Ekholst. Kingship and Masculinity in Medieval Europe. London: Routledge, 2017.
- Biddick, Kathleen. The Shock of Medievalism. Durham: Duke University Press, 2007.
- Boswell, John. Christianity, Social Tolerance, and Homosexuality. Chicago: University of Chicago Press, 1980.
- Brundage, James. Richard Lionheart. New York: Scribner, 1974.
- Burgwinkle, William. Sodomy, Masculinity, and Law in Medieval Literature. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.
- Cavanaugh, William. The Myth of Religious Violence. Oxford: Oxford University Press, 2009.
- Gillingham, John. Richard I. New Haven: Yale University Press, 1999.
- Jordan, Mark D. The Invention of Sodomy in Christian Theology. Chicago: University of Chicago Press, 1997.
- Karras, Ruth Mazo. Sexuality in Medieval Europe. New York: Routledge, 2006.
- Kuefler, Mathew. The Manly Eunuch. Chicago: University of Chicago Press, 2006.

- Mills, Robert. Seeing Sodomy in the Middle Ages. Chicago: University of Chicago Press, 2015.
- Stock, Lorraine K. “Richard I in Film and Cultural
- Memory.” Journal of Medieval Cultural Studies.(2009)
- Tyerman, Christopher. The Invention of the Crusades. London: Macmillan, 1998.
- Van der Lugt, Maaike. Medieval Interpretations of Sodomy. Florence: SISMEL, 2010.
- Zeikowitz, Richard. Homoeroticism and Chivalry. New York: Palgrave Macmillan, 2003.